

وهو أن « اللغة لم تكن وسيلة اتصال مقدسة ، وإنما كانت شيئاً أنتجه بعض الناس بأنفسهم » .
 وفي المحاضرات التي ألقاها هيجيل في برلين عن فلسفة التاريخ عامي ١٨٢٢ - ١٨٨٣ ، ناقش
 الآداب القومية كتعبير عن المجتمعات التي أنتجته ، أى المجتمعات التي فهمها على أساس أنها
 كائنات حية عظيمة تحول نفسها باستمرار تحت دفع سلسلة متعاقبة من الأفكار المسيطرة
 والسائدة .

وفي مجال النقد الأدبي ، ازدهرت - لأول مرة - وجهة النظر التاريخية هذه على أكمل وجه
 في أعمال الناقد الفرنسي تين Taine ، وذلك في منتصف القرن التاسع عشر . وجميع أفراد
 مدرسة النقاد التاريخيين التي يتسمى إليها تين - من أمثال ميشليه ، ورينان ، وسانت بيغ -
 انشغلوا بتفسير المؤلفات في ضوء مصادرها التاريخية ، إلا أن تين كان أول من حاول أن يطبق تلك
 المبادئ تطبيقاً انتظامياً على أوسع مدى في عمل مكرس تكريماً كاملاً للأدب . ففي مقدمته
 لكتابه : « تاريخ الأدب الإنجليزي » الذي نشره عام ١٨٦٣ ، ساق رأيه الشهير الذي يقول بأن
 الأعمال الأدبية ينبغي أن تفهم على أنها نتيجة أو محصلة ثلاثة عوامل متمازجة : العصر ،
 والجنس ، والبيئة . لقد كان تين يعتقد بأنه رجل علم وميكانيكا ، وأنه يفحص الأعمال الأدبية من
 نفس وجهة النظر التي يجرى بها الكيميائي تجاربه على المركبات الكيميائية . غير أن الفرق بين الناقد
 والكيميائي هو أن الناقد لا يستطيع أن يمزج عناصره ثم يراقبها ، كى يرى ما يحدث لها ، ولكن كل
 ما يستطيعه هو دراسة الظاهرة التي تواجهه بالفعل . إن ما يفعله تين عملياً هو التظاهر بأنه يبيئ
 المجال للتجريب عن طريق وصف العصر ، والجنس ، والبيئة ، ثم يقول : « إن موقفاً كهذا
 يتطلب كاتباً من مثل هذا النوع » . ثم يواصل بعد ذلك وصفه لنوعية الكاتب الذي يتطلبه
 الموقف ، وفي نهاية التوصيف نكتشف أننا نواجه درسبير - أو ملتون أو بيرون ، أو أية شخصية
 عظيمة أخرى - وقد التوى عنقه وتغير كى يبرهن على صحة تكهنات أو توقعات تين ، وذلك
 بالتواؤم مع الوصف تواؤماً تاماً .

وهكذا نجد في تين عنصرًا من التضليل والمخادعة ، وإنه لشيء سعيد أن نجد ذلك . فلو أنه
 كان فعلاً رجل الميكانيكا الذي تصوره ، لكان لعمله الذى بذله في سبيل الأدب قيمة
 ولو ضئيلة . الحقيقة أن تين أحب الأدب لذاته - وقد كان هو نفسه في أحسن حالاته فناً ممتازاً -
 كما كان مقتنماً بمكارم أخلاقية معينة اقتناعاً قوياً ، وهى التى شحنت كتاباته بالطاقة العاطفية .